من الثقافة العربية القديمة

النـــار

عقد الجاحظ فصولا ممتعة على النيران ، فى نهاية الكتاب الرابع وبدء الخامس من الحيوان ، ذكر فيها نيران العرب والعجم ، فحدث أخبارها ، وأبدى آثارها وأشعارها

وإنا نتكلم الآن عن النار ونشوئها ، فنورد قول طائفتين تختصمان فيها جمعناه من شتات ، واختصرناه بعد افاضة .

النار

النار اسم للحر والضياء ، فاذا قالوا أحرقت أو سخنت فانما الاحراق أو التسخين هو للحر ، دون الضياء .

والحر جوهر صعاد كالضياء ، وانما يختلفان فى الصعود لاختلاف جوهرهما ، والضياء أحث صعودا لا يعلى . ألم تر الى النار اذا أطفأناها من أتون وجدنا أرضه وهواءه وما يلابسه حاراً ، ولم نجده مضيئا .

مستقر النار ونشوؤها :

النار التى تقدح من عودين أو حجرين أين تستقر ؟ أهى فى العودين كامنة تبرز بالقدح فهى من عناصر العود أو الحجر ؟ أم تتراءى أنها خرجت منهما ، والحق أنها ليست فيهما ، بل تحدث من غير العود والحجر عند قدحهما — كلا الرأيين له فرقة تميل اليه وتؤيده بكل وسعها واليك أقوالها :

— نظرية الكمون :

يرى فريق أن النار كامنة فى الحطب والحجر وغيره لأنها أحد عناصره ، ويمنعها من الظهور البرد المضاد للحر والمكافىء له . فان نحن قوينا النار الكامنة إما بنار أخرى خارجية أو بتوهين البرد المانع لحك العودين اللذين يضعف البرد فيهما — ظهرت النار الكامنة ، وتغلبت على البرد ونفته .

فالنار التى نراها هى نار العود تسعرت بعد كمونها ، وانتصرت على مكافئتها . واعلم أن « احراقك للثوب والحطب والقطن ، انما هو خروج نيرانه منه ليست أن ناراً جاءت من مكان فعملت فى الحطب ، ولكن النار الكامنة فى الحطب لم تكن تقوى على نفى المانع ضدها عنها فلما اتصلت بنار أخرى واشتدت منها قويتا جميعا على نفى ذلك المانع . فلما زال تجزأ الحطب وتجفف وتهافت لمكان عملها فيه » . « وإن من ينكر أن فى الحجر ناراً كامنة ، كمن ينكر الزيت فى الزيتون ، والدهن فى السمسم ، والدم فى الانسان ، ويقول بحدوث ذلك عند رؤية الانسان لها » .

بل تتوسع هذه الفرقة فى تطبيق نظريتها ، فعندها أن حرارة الأيام ليست من الشمس ، وانما النيران الكامنة فى العالم تظهر بتقوية الشمس لها وتغليبها على مانعها ، بل تطفر من كمون الحرارة الى كمون السم ، فتزعم أن فى كل بدن سما كامناً ، له مانع يمنعه من ظهور أعراضه — وليس سم الأفعى الذى يتلف البدن — لأنه ليس يقتل متى مازج بدناً لا سم فيه ؛ ولكن الذى يقتل السم الكامن فى الأبدان ، متى أعانه سم الأفعى وقواه على مانعه .

البراهين على كمون النار :

لو كانت العيدان كلها لا نار فيها ، ما كان ظهورها فى بعض العيدان أسرع منها فى البعض الآخر ؛ لكنها كانت كذلك — لأن مانعها أضعف فى بعضها عن بعض ، فيكون ظهور نيرانه أسرع ، فالمرخ والعفار أفضل العيدان ، كما أن الحجارة تختلف فى الأسرار ، وأكثرها ناراً حجر المرو — وقد تحتك عيدان الأشجار فى الغياض فتلتهب النار — وقد تقدح النار من الساج اذا اختلط بعضه ببعض فى السفينة عند تحريك الأمواج لها ، ولذلك أعدوا الرجال يصبون عليه الماء صبا ، ولم صار لبعض العيدان جمر باق ، وبعضها له جمر سريع الانحلال ، وبعضها لا جمر له ؟ ولم صار البردى مع هشاشته ويبسه ورخاوته لا تعمل فيه النيران ؟ فهل اختلفت تلك الا على قدر ما يكون فيها من النار وعلى قدر قوة الموانع وضعفها ؟

ولا يسكت هذا الفريق دون أن يؤيد كلامه بآى الكتاب . قال تعالى « أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » تتراءى كيف قال (شجرتها) وليس فى تلك الشجرة شىء وجوفها وجوف الطلق (١) فى ذلك سواء ، وقدرة الله على أن يخلق النار عند مس الطلق كقدرته على أن يخلقها عند حك العود ، وهل يريد سبحانه فى هذا الموضع الا التعجيز من اجتماع الماء والنار ؟ ويقول تعالى : « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون » فهل تجد لذكر الخضرة الدالة على الرطوبة معنى ، الا ذلك التعجيز ؟

(١) ثبت تستخرج عصارته فيتطلى به الذين يدخلون فى النار فيمنع الحرق

نظرية الاستحالة .

تنكر هذه الفرقة أن النار كامنة فى العود ، وكيف تكمن فيه وهى أعظم منه ؟ ولا يجوز أن يكمن الكبير فى الصغير ؛ ولكن العود اذا احتك بالعود حمى العودان . وحمى من الهواء المحيط بهما الجزء الذى بينهما ، ثم الذى يلى ذلك منهما ، فاذا احتدم رق ثم جف ثم التهب ، فانما النار هواء استحال .

والهواء فى أصل جوهره جسم رقيق خوار ، جيد القبول ، سريع الانقلاب ، فالنار التى نراها أكثر من الحطب انما هى ذلك الهواء المستحيل ، وانطفاؤها بطلان تلك الأعراض الحادثة للهواء ينقلب الهواء الى نار ، لأن طبعه قريب منها فالنار يابسة حارة ، والهواء رطب حار ، والماء رطب بارد . فالهواء وسط بين النار والماء يجمع بينهما ، وقد ينقلب كل منها الى مايقاربه . فيجوز أن ينقلب الهواء نارا ، وينقلب الهواء ماء ، ثم ينقلب الماء أرضا ، ولابد فى الانقلاب من الترتيب والتدريج .

البراهين على انكار الكمون :

نرى براهين هذه الفئة سلبية ، فهى تنكر الكمون باعتراضاتها على النظرية ، وإن كانت لاتتقدم بحجج تؤيد الاستحالة ، فترى المناظرة تنتقل الى تأييد الكمون وإنكاره . تقول هذه فى الانكار .

ان هذا الحر الذى رأيناه قد ظهر من الحطب ، لوكان كامنا فيه لكنا وجدناه بالمس كالجمر المتوقد ، فان قلتم كان يمنعه برد مكافىء كامن مثله — فأين ذلك البرد ؟

لايخلو الحال من أمرين : إما بقى بعد الاحراق ، وإما خرج عند الاحراق . فان كان باقيا فى الرماد استلزم ان يكون الرماد أبرد من الثلج ، وإن كان خرج مع الحر ، وأخذ كل وجهته — فقد كان ينبغى له أن يخمد ويهلك الاقاه ، كما أحرق الحر وأذاب كل مالاقاه ولما وجدنا جميع أقسام هذا الباب لم تتحقق ، علمنا أن النار لم تكن كامنة فى الحطب .

ونشعر بقيمة هذا الاعتراض ، إذا لاحظنا قول الفريق الأول فى أن النار تنفى المانع الذى هو البرد ، ولم يقل نفيه وتبطله — إذن فالبرد موجود عند الاحراق ، يقع عليه أحد الفروض السابقة .

بعد هذا أخذت كل فرقة تنتصر لنفسها بنقض قول خصيمتها وإنا نمسك عند هذا المقدار .

احمد احمد الشاجى

فى محكمة التاريخ

الوزير مؤيد الدين ابن العلقمى

هل غدر بأمته وخليفته ؟

— ٢ —

مناقشة المصادر

المصادر كما رأيت قسمان : قسم يبرىء الرجل مما نسب اليه ، وآخر لاأقول يتهمه بالغدر والمخامرة ، بل يلصق الخيانة به لصقا دون تحرز او تشكك ، ويمثل القسم الأول ابن الطقطقى وحده ، ويمثل الثانى ابو الفدا وابن الوردى والكتبى وابن خلدون ودحلان ، فهؤلاء متفقون فى الجوهر مختلفون فى الاعراض . والآن أحول شطر انتباهى نحو ابن الطقطقى لأنه اول من كتب عن الحادث ، ولأنه المؤرخ الأوحد الذى يحاول ان يبرىء ساحة الوزير من تلك التهمة الشنعاء ، فيقول بصراحة إن ابن العلقمى لم يخامر ، ويؤيد مدعاه باستبقاء هلاكو للوزير وتسليمه الأمر اليه بعد فتح بغداد ، الا ان مانعلمه من كلام ابن خلدون يدحض حجة ابن الطقطقى من حيث يؤيدها ، فابن خلدون يذكر كما يذكر ابن الطقطقى أن هلاكو استبقى الوزير فى دست الوزارة الا انه يزيد على ابن الطقطقى فيقول (والرتبة ساقطة عندهم فلم يكن قصارى أمره الا الكلام فى الدخل والخرج ، تصرفا من تحت آخر أقرب الى هلاكو منه) (١) ثم لابن الطقطقى حجة أخرى فى براءة الوزير هى أنه يستبعد على هلاكو ان يبقى على الوزير فيما لو كان الوزير غدر باستاذه ، وهذا فى الحقيقة استنتاج ضعيف جدا ، يرده مايقع تحت ابصارنا اليوم من استعانة المستعمرين بطبقة خاصة من الناس يسمونهم عادة بالمعتدلين ، لكنهم فى الحقيقة الخونة الخارجون على مبادىء الأمم انتزاعة الى استقلالها واستغلال مواهب ابنائها . وماذا يضير هلاكو ان هو استبقى ابن العلقمى ؟ وهل بلغ هلاكو من سمو النفس ، وحب الصادقين والمخلصين تلك المنزلة التى تحوله ان يقتل من يحرج على هذه المبادىء ، حتى ولو كان الخروج فى مصلحة هلاكو ؟ فعدم قتل هلاكو لابن العلقمى لايؤخذ حجة على سلامة نيته فى دولة المستعصم ، بل على العكس من ذلك يمكن اعتباره كدليل على إدانة الرجل وعمالاته لاعداء الخلافة المتبرين . ثم

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٤٣٠